

العيش في مواقع التراث الحيّ بوادي مزاب (الجزائر).

الدوافع، التمثّلات والاستمرارية

عبد العزيز خواجه⁽¹⁾

نعيمة رضائي⁽²⁾

فقدت العديد من المدن القديمة أو الحواضر أدوارها الرئيسة هذه الأيام، وتحوّلت إلى مساحات معزولة أو مهجورة، وأصبح بعضها ملاذاً للمجموعات الفقيرة والمهاجرة وحتى المنحرفة أحياناً، وفي أحسن الأحوال تحوّلت إلى مواقع للزوار ومتاحف تُستخدم فضاءات سياحية (سكنية، فنية ترفيهية وغيرها). لكن أيضاً، من هذه الحواضر، مواقع تراثية حافظت على وظيفتها الأصلية وما تزال تُستخدم من قبل ساكنيها للعيش. يمكن اعتبار مدن وادي مزاب القديمة (أو القصور) من هذا القبيل.

يقع وادي مزاب على بعد 600 كيلومتر جنوب الجزائر العاصمة، في الجزء الشمالي من الصحراء، وهي منطقة جافة خالية من الغطاء النباتي. وعلى الرغم من حدّة الظروف المناخية، إلّا أنّ أهلها جعلوا منها منطقة جذابة وقابلة للمعيش (Adad & Mazouz, 2013, Chabi & Dahli, 2011). أول سكّانها قبائل أمازيغية من زناتية تحوّلت مع الزمن إلى الإسلام بفعل دعاة المعتزلة ثمّ الإباضية، قبل أن تنصهر في إطارها مجموعات قبلية أخرى مختلفة قدمت إليها حوالي القرن الحادي عشر

⁽¹⁾ جامعة غرداية، قسم علم الاجتماع، غرداية، 47 000، الجزائر.

⁽²⁾ جامعة طهران، كلية التهيئة العمرانية، طهران، 99 204، إيران.

(Adad & Mazouz, 2013). متّخذة من الاتجاه الإباضي¹ إطارها الإيديولوجي المذهبي ونمط حياتها، وطريقة تفكيرها، ومبلغ تطلّعاتها الاجتماعية والثقافية والسياسية، وما تزال كذلك إلى اليوم، وبالرغم من استقرار تجمّعات قبلية متباينة الانتماء بجوارها في ظلّ الدولة الوطنية إلاّ أن القصور² بقيت على هذا المذهب محافظة على نسقها الاجتماعي.

الصورة 1: تمثّل موقع مزاب من الجزائر



المصدر: www.mediaterranee.com

¹ مذهب إسلامي، عُرف في بدايته بـ "أهل الدعوة والاستقامة" قام على يد جابر بن زيد الأزدي، ثمّ نُسب لأسباب سياسية لعبد الله بن إباح التميمي، ما يزال أتباعه منتشرون إلى اليوم بين سلطنة عمان، وجبل نفوسة بليبيا وجربة بتونس، وزنجبار بتانزانيا، وغرداية بالجزائر (خوجة عبد العزيز، 2017، 88).

² القاطنون داخل هذه القصور من السكان الأمازيغ الإباضية فقط، فبالرغم من انتقال جماعات عربية مالكية كثيرة للمنطقة، وكذا جماعات يهودية في مراحل تاريخية مختلفة إلاّ أنّها سكنت حواف القصور وهوامشها وامتداداتها ولم تتمكن من التغلغل وسطها، وبقيت القصور بحدودها القديمة حصراً على الإباضية فقط إلى يومنا الحالي، ولا يُسمح لغيرهم بالملكية فيها بمقتضى الأعراف السائدة.

القصور المحاذية للوادي خمس هي على التوالي: العطف وبنورة ومليكه وغرداية وبني يسجن، أُقيمت خلال الفترة ما بين 1012 و1350م، أغلبها تجميع لقرى صغيرة كانت متناثرة هنا وهناك، بالإضافة إلى قصري بريان والقرارة البعيدين من التجمّع الأساسي بحوالي 50 إلى 120 كلم. وقد تمّ تسجيل هذه القصور من قبل اليونسكو عام 1982 ضمن التراث العالمي.

تبدو هذه القصور من الأعلى كأنّها معازل ذات أسوار محصّنة، ذات نسيج حضري مضغوط وشبكة هرمية متماسكة وضيقة الممرات. يقع المسجد في أعلى نقطة منها، ثمّ تليها منازل متناغمة تماماً فيما بينها على مستويات مختلفة شبيهة بمدرجات.

تعتمد الحياة الاجتماعية للمزابيين، منذ استقرارهم بالمنطقة (حوالي القرن 11 و12م)، على العناصر الأربعة: المنزل، والمسجد، وبساتين النخيل، والسوق. ويمثّل المسجد³ المركز الروحي والثقافي والاجتماعي للقصر، لتقع العناصر الأقلّ قيمة حوله كلّما اتجهنا نحو الأسوار، بخاصة السوق الذي تتشكل حوله الوظائف الاقتصادية والسياسية. تتميز هندسة المنازل بلامح تعكس المعتقد الديني والخصائص الاجتماعية الثقافية للسكان والمتطلبات المناخية للمنطقة. فلم تتم إقامة هذه القصور من قبل خبراء معماريين جامعيين أو أكاديميين، إنّما تمّ تشييدها بأيدي أفراد المجتمع ذاتهم، نتاج عمل تراكمي، تعاوني وتشاركي (Adad & Aiche, 2014).

على الرغم من مرور أكثر من عشرة قرون، وتشديد مناطق حضرية جديدة خارج هذه القصور، إلّا أنّ هذه الحواضر القديمة لا تزال تحتفظ بسبل عيشها وتلعب دوراً مهماً في الحياة العامة. إذ تشمل مساحات سكنية وفضاءات تجارية (السوق)، تعمل في بعض الأحيان على نطاق إقليمي، فهي بذلك "مواقع تراثية حيّة" حافظت على وظائفها التقليدية، والحديثة نسبياً، وبخاصة "المسكن" منها.

³ تُسمّى القصور أعلى هيئة تُدعى "العزابة" مقرّها المسجد، وهي تقوم بتنظيم جميع شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية من أعراس ومآثم وكذا السوق وتدير الأوقاف وغيرها. أمّا الشؤون السياسية والحياة المدنية فتسبّرها هيئة الأعيان كتوجيه الانتخابات والدعوة للحملات التطوعية والتعامل مع الجمعيات والهيئات الرسمية وغيرها، بالتنسيق دوماً مع العزابة، وتقع في أدنى الهرم العشائري التي تتكفل بقضايا الأسر والتساند الاجتماعي ورعاية الأيتام، وهي ممثلة في هيئة العزابة التي تساعد في القيام بمهامها (خواجة عبد العزيز، 2017، 115-150).

فقد شهدت ولاية غرداية عامة ومنطقة مزاب توسّعا عمرانيا كبيرا إذ زاد حجمه بـ 08 مرّات ممّا كان عليه غداة الاستقلال وامتدّ بحوالي 25 كلم، وفاق عدد السكنات الجديدة به 60 ألف وحدة، وظهرت أحياء جديدة بالكامل كمنطقة النوميّرات ووادي نشو وسيدي اعجاز وغيرها، لكنّ القصور بقيت مأهولة وظلّ أصحابها متمسّكون بها رافضين الخروج منها (عكس ما وقع في كثير من المناطق المجاورة كورقلة وأريغ مثلا).

الصورة 2: نموذج لتوزيع الفضاءات داخل قصر بني يزقن



المصدر: www.opvm.dz

من هنا، برز السؤال الرئيس: فبالرغم من الإرهاق والشيخوخة التي تعاني منها المباني وفضاءات القصر، وبروز مناطق سكنية جديدة بمرافق أفضل خارجا إلّا أنّ الساكنة متمسّكة بالبقاء فيه. فما هي التمثّلات الكامنة وراء المخيال الاجتماعي والداعية لاستمرارية بقائهم في هذه الحواضر القديمة والحفاظ على وظائفها الأصلية (السكنية والتجارية، والدينية)؟ بمعنى آخر، ما الأسباب التي يتمثّلها سكّان القصور لمساكنهم والتي تجعلهم متمسّكين بالعيش فيها إلى الآن؟...

تتطلّب الإجابة على هذا السؤال معرفة دوافع السكّان نحو الاستقرار في القصور وطريقة سكّانهم (الحياة اليومية، والاجتماعية، وعلاقتهم بالمساحات المتوقّرة...). وقد توسّلنا لمعرفة ذلك بالمنهج الكيفي وتقنيتي الملاحظة والمقابلة (القصدية).

مفاهيم مفتاحية

التراث (الموروث) الحيّ

مواقع التراث نوعان: "التراث الميّت" "Dead heritage" والتراث الحيّ "Living heritage". يشير الأوّل للتراث الذي فقد وظيفته التقليدية المتّصلة بالجماعة، وطريقة التعامل معه هي الحفاظ عليه دون أيّ تغيير، وعادة ما يكون تحت تصرّف السلطات. ومعظمها أصبح خاضعاً لحفريات أثرية. ويشير الثاني بالمقابل، لمواقع التراث الحيّ التي هي على اتصال دائم بالمجتمع، يستخدمها الأفراد في حياتهم اليومية، وطريقة التعامل معها هي محاولة ترميم معظم مبانيها (Tunprawat, 2009). ولا يقتصر ذلك في الحفاظ على الماضي فقط إنّما تكييفه مع سياقات اليوم (Massey, 2012).

تشارك هذه المهمة جهات مختلفة من مؤسّسات وأفراد مجتمع وسيّاح، لهذا يحمل التعامل معها تعقيدات جمّة لا مادية فقط إنّما دينية وروحية أيضاً (Arkarapotiwong, 2015). تُظهر تجارب الحفظ العالمية أنّ للمحافظة على التراث الحيّ نهجان: تقليدي يركز على الجانب المادي (ICCROM, 2009)، ومعاصر يسعى إلى فهم الماضي لتلبية احتياجات مجتمعات اليوم. معتبراً التراث عملية مستمرة لا يمكن فصل أبعادها المادية عن اللامادية (Baillie, 2007). لذا يجب التركيز على ثلاثة مبادئ في مناقشة مواقع التراث الحي: استخدام الموقع، العلاقة بين التراث والمجتمعات المحليّة، استمرارية التقاليد والأنشطة المرافقة (Wijesuriya, 2010).

يمكن للمجتمع المحليّ تمييز قيمة التراث الحيّ بشكل أفضل، لأنّ حياته تتأثر بها وتؤثر عليها (Mason, 2002). ويتأرجح ذلك بين بعدين. أحدهما إدراكه لفوائد التراث، والثاني للقيود التي تفرضها الاتفاقيات الوطنية أو الدولية (Jimura, 2010). تقترح مقارنة التراث الحيّ المنهج المجتمعي برنامجاً للحفاظ عليه (Kong, 2008). تعني بالتالي كلمة "موقع التراث الحيّ" في هذا البحث كلّ حيّ سكني أو منطقة تاريخية مأهولة ذات قيمة عالمية من حيث البناء الفيزيقي وتقاليد الحياة والمهارات الثقافية المميزة لسكانها.

المسكن

المسكن مصطلح من الجغرافيا الفينومينولوجية يعني علاقة الإنسان بالأرض، و"أن تكون إنساناً - بالنسبة لهيدجر Heidegger - يعني أن تكون بشراً على الأرض، وهذا يعني أن تسكن فيها" (1952], 2004b, p. 141). ويرى كريستيان نوربرج شولز C. Norberg-Schulz أن المسكن: "أكثر من سقف فوق رؤوسنا وعدد من الأمتار المربعة تحت تصرفنا، فهو أولاً مقابلة الآخرين قصد تبادل المنتجات والأفكار والمشاعر، أي تجربة الحياة باعتبارها كمّاً مختلفاً من الاحتمالات. وهذا يعني، ثانياً التوصل إلى اتفاق معهم، أي قبول مجموعة من القيم المشتركة..." (Norberg-Schulz, 1985, p. 7).

وسّع بعض العلماء (Lévy & Lussault, 2003) المفهوم إلى "الفاعلين الفرديين" باعتباره "التأقلم مع الفضاء" (Stock, 2007)، و"ممارسات الأماكن الخاصة" (de Certeau, 1990). وهذا يعني أن أنشطة الفرد وسلوكياته تُحدّد المكان من ناحية، ويُحدّد، من ناحية أخرى، المكان شاغله، و"أفضل طريقة لحماية التراث هي احتلاله، وتعيين وظيفته، ومنحه دوراً في مجتمع اليوم"، فالحفاظ على التراث يعتمد إلى حد كبير على قدرة كلّ مجتمع على تعمير أماكن تراثه ومعرفة كيفية التوفيق بين التقليد والحداثة (Gravari-Barbas, 2005, p. 11-13).

الجماعات الهوياتية

طوّر المنظّرون المعاصرون - حديثاً - منظوراً اجتماعياً واسعاً حول الذات في "المجتمع الراهن" (Beck, 1992 ; Giddens, 1991). مؤكدين على أنّ الإحساس بالماضي والحاضر والمستقبل عوامل تطارد عمل الهوية وممارساتها حسب تعبير بلومر (Bauman, 1988, p. 62). فالحديث عن تقاطع الجماعاتي بالهويّاتي يُحيلنا إلى أبعد من ذلك زمنياً، إذ تعيدنا إلى أعمال Ferdinand Tönnies وثنائية "الجماعة والمجتمع" (Tönnies, 1957)، لكنّ هذه المرّة في تواجدهما المتزامن والمتعايش، إذ في ظلّ التزايد المتسارع للحداثي والمعاصر، تقاوم مجتمعات من بقاع مختلفة الذوبان، وتصرّ على الإبقاء على خصوصياتها الحضارية والثقافية متكيفة مع المجتمع الجديد، لذا فمفهوم

"الجماعات الهوياتية" أو المجموعات ذات الثقافة المتميزة، يفي بالغرض للتعبير عن هذه الحالة اليوم، ذلك أنّ المجتمع الجزائري قائم على الوحدة المتعددة أو الهوية ذات الأبعاد المتباينة، والتي يتقاطع فيها حضور الماضي وأمل المستقبل في راهن غير متناقض يشعر أفرادها بالتوافقية في أقصى حدودها.

منهجية البحث

قامت الدراسة الميدانية، من خلال أداتي المقابلة والملاحظة، على المنهج الكيفي الذي يسمح بفهم عميق للظواهر والالتزام بأراء المبحوثين بعيداً عن الرقمنة العديدة للحدث (Streubert Speziale & Carpenter, 2007). وتحليل نصّ المقابلات المنجزة (Gbrich, 2013). وفكّ الترميزات والدلالات المقصودة (Elo & Kyngäs, 2008). لبناء تصور مستمدّ من البيانات الميدانية أكثر، لا من إسقاط نظريات مسبقة عليه. وبالنظر إلى هدف البحث المتمثل في معرفة أسباب بقاء الساكنة داخل القصور وتمثلاتهم لذلك، تمّ تجميع أسئلة المقابلة ضمن عدّة فئات بحثية هي:

- 1- الفئة الأولى: تقوم على التعرف على سكّان القصور الحاليين، وتضمّ أسئلة تدور حول تاريخ الأشخاص الذين تمّت مقابلتهم في القصر من جهة والعمر والأسرة والوضع الوظيفي لهم من جهة أخرى.
- 2- الفئة الثانية: وتستند على معرفة دوافع عيش السكّان في القصور، وبها تمّ طرح أسئلة تتمحور حول سبب اختيار القصر للإقامة أو البقاء فيه، والرغبة أو عدم الرغبة في مغادرة القصر، وتصوّر السكّان تجاه القصر (نقاط القوة والضعف في القصور، التغيّرات التي حدثت فيه).
- 3- الفئة الثالثة: تركز هذه الفئة على تقييم العيش في القصور، وبها كانت الأسئلة المتعلقة بالحياة اليومية في القصر، وعلاقات الجوار والروابط الاجتماعية في القصر، ثمّ وضع التراث العمراني والحضري في القصر، وعلاقة السكّان بالتراث العمراني والحضري فيه.

عن مجتمع البحث

قبل التطرق إلى مجتمع البحث، تجدر الإشارة إلى أنّ الدراسات السابقة عن منطقة مزاب سواء في الفترة الكولونيالية أو جزائر الاستقلال كثيرة جداً، ومن الصعوبة إحصاؤها كلّية، وقد حاولت عدّة جمعيات علمية ذلك أهمّها جمعية أبي إسحاق بقصر غرداية⁴ فعُدّت أكثر من ثلاثة آلاف كتاب في حقول عدّة كالهندسة والعمران والاجتماع وغيرها، كما قام باحثون آخرون بالإشارة إلى مداخل أساسية لدراسة مزاب (خوجة، 2017، ص. 215). لذا من غير الممكن عرضها بأكملها بخاصة أنّ موضوعنا تتقاطع حوله عدّة مجالات اهتمام، ولا نعلم عملاً سابقاً تناول تصوّرات ساكنة القصور بمزاب عن ذواتهم وواقع معيشتهم فيها.

أحصت ولاية غرداية 467 862 نسمة سنة 2018 بزيادة تقدّر حوالي 28.7% (ONS. dz)، واستفادت من مشاريع سكنية متعدّدة خارج البناء الذاتي، فقد كانت حصّتها (دوما حسب ONS) سنة 2015 تقدّر بـ 3 746 سكا، وسنة 2016 بـ 5 030، ليرتفع سنة 2017 إلى 9 916 سكا بزيادة تقدّر بحوالي 38% وهذا يعكس تناسبا كبيرا بين الزيادة السكانية وتوزيع السكنات. وبالرغم من كلّ هذا التوسّع الذي شمل الامتداد نحو مدينة بريان (بوهرة، واد نشو...) ومثلي (قار الطعم، النوميرات، المنطقة العلمية...) والذي بلغ -كما مرّ- أكثر من 08 مرات منذ الاستقلال، لم يمنع السكّان من الخروج من قصورهم القديمة التي حافظت على أهلها منذ القدم.

من الصعوبة بمكان تحديد مجتمع البحث أو سكّان القصور بدقّة، كون هذه الأخيرة تندرج ضمن بلديات أوسع ونسيج عمراني وحضري ممتدّ، فالبلديات لا تملك أرقاماً عن أحياء محدّدة إنّما عن تراب البلدية كلّها ما يعيق المعرفة الإحصائية لهذا المجتمع، أمّا من الناحية التاريخية فأول إحصاء تمّ في الفترة الكولونيالية كان سنة 1883 (C. Amat, p. 225) الذي قدّر عدد السكان المزابيين (القاطنين في القصور لأنّ السكن خارج القصور لدى المزابيين لم يبدأ إلا بعد استقلال الجزائر 1962) بـ 31 001 ساكن (من 32 537 ساكن بمزاب أي 95.2%)، لينخفض سنة 1896 إلى 21 224 مزابي (من 25 254 أي 84%)، ويرتفع سنة 1926 إلى 22 440 مزابي (من 29 977 ساكن

⁴ www.elminhaj.org

بمزاب أي 74.8%)، وسنة 1931 (Cahiers d'Outre-Mer, 89, p. 54) إلى 22 394 (من 146 30 أي 74.2%)، أما إحصائيات 1954 و1960 فلا تفرّق بين الجماعات الإثنية في مزاب، وكان التقسيم دينيا (مسلمون وغير مسلمين) ممّا يصعب معه الجزم في العدد الحقيقي لسكّان القصور. ومن الواضح جدّا أنّ تناقص حجم سكان القصور عبر الزمن تزايد بقوة مع قدوم مجموعات مختلفة للمنطقة، لكن أيضا مع الامتداد العمراني الذي بدأ مع المخطط الجهوي لهيئة التجمع العمراني لغرداية بموجب قرار الوزير المنتدب يوم 12 سبتمبر 1959 والذي تبعه مخطط 30 أفريل 1962، دون الحديث عن المخططات المتتالية لفترة الاستقلال.

ولعلّ أقرب مصدر في الوقت الحالي يمكن من خلاله ملامسة واقع القصور هو ديوان حماية سهل وادي مزاب OPVM، فالخرائط التي يوفّرها تبين أنّ معدّل السكنات في القصر الواحد حوالي 1500 منزل (تزيد وتنقص حسب القصور)، ومعدّل عدد أفراد الأسرة المزابية الواحدة حوالي 07، بذلك يكون عدد سكّان القصر الواحد حوالي 10 500 ساكن، ما يجعل من عدد جميع سكان القصور السبع مجتمعة حوالي 73 500 ساكن (وهو ما يمثل 15.7% من سكّان الولاية)، اخترنا منها ثلاثة قصور هي: غرداية، بني يسجن ومليفة وعدد سكّانها حوالي 31 500 ساكن.

الواقع العمراني للقصور مرّ بمراحل مختلفة قد تحتاج إلى عمل قائم بذاته لا يسعه هذا البحث، لكنّ الأكيد أنّ أسوأ حالاتها كان نهاية الثمانينيات من القرن الماضي في ظلّ الحزب الواحد الذي طالما اعتقد أنّ الموروث التراثي رجعي لا يستحقّ الاهتمام، لكن بداية الانتعاش انطلقت مع النصف الثاني من تسعينيات القرن نفسه في غضون الاحتفال باللفية العطف سنة 1996⁵ وترميم الكثير من المعالم التاريخية على رأسها القصور والآبار والأبراج وخُصص لذلك غلاف مالي مهمّ، وتوسّعت العملية أيضا في إطار صندوق الجنوب بين سنتي 1999 و2004 خاصة⁶، لتشهد بعد ذلك تعثرات

⁵ تمّ الاحتفال في هذه السنة بذكرى مرور ألف عام من تأسيس أوّل قرية بمزاب "تاجينيت" أو العطف، ورُصدت أموال كبيرة على المستوى البلدي والولائي لترميم هذه القرية وغيرها من القرى العتيقة.

⁶ عمليات ترميم القصور تحتاج لدراسة قائمة بذاتها، وقد وضع مدير سهل وادي مزاب السيد كمال رمضان مشكورا بين أيدينا أرشيفا واسعا في الموضوع يستحقّ الكثير من العمل والجهد لدراسته وتتبع صيغته ومراحله المعقّدة إداريا، تدبيريا، ماليا، عمرانيا واجتماعيا...

مختلفة نتيجة توزيع المهمة بين قطاعات متباينة (البلدية، قطاع الثقافة، مديرية السكن، ديوان حماية سهل مزاب...). توقّف هذه العملية أو بالأحرى تباطؤها وعدم انتظاميتها جعل القصور في حالة مهترئة جدًا سواء ما تعلّق بواجهة المنازل وحالة الشوارع أو ما ارتبط بالوضعية الداخلية للسكنات من تشققات وتسرب للمياه وغيرها. أُجريت مقابلات هذه الدراسة الميدانية في الفترة الممتدة بين 23 جانفي إلى 20 فيفري 2019 واستغرقت كلّ مقابلة حوالي 30 دقيقة في المتوسط. ولأنّ العيّنة شبه قصدية (اختيار أيّ فرد داخل السوق أو مارٍ في أزقة القصور دون تحديد مسبق) فقد تمّ اختيار 40 فرداً من سكّان ثلاث قصور من مزاب (غرداية وبني يسجن ومليكة)، تضمّ 30 رجلاً و10 نساء. والسبب في كون النساء أقلّ عدداً كونهنّ لم يقبلن إجراء المقابلة في كثير من الأحيان. واختيار عمر يتراوح بين 22 و67 سنة كان لقياس مدى الديناميكية الجيلية شريطة أن لا تقلّ مدة سكّنه في القصر عن خمس سنوات، كما استغرقت العينة فئات سوسيو-مهنية مختلفة دون التمييز بينها من موظفين وعمّال يوميين أحرار وأساتذة وتجّار.

الصورة 03: تبين الوضعية المهترئة لواجهات المنازل داخل القصر



المصدر: الباحثين، بتاريخ: 2019/01/25

أسباب اختيار القصر المزابي للسكن: عرض وتحليل

جاءت إجابات عينة المبحوثين من سكان القصور الثلاث على سؤالنا المحوري: ما الذي يدفعك ويدفع ساكنة القصور للبقاء فيها واستمرارية العيش بداخلها؟ كما يلي:

السكن في القصور: استمرارية لتقاليد الأجداد

جميع السكّان القاطنين داخل القصور القديمة من المزبيين كما مرّ (سكّان مزاب الأصليون)، ولا يُسمح لغيرهم من المجموعات القادمة للمنطقة (سواء من البدو العرب، أو المهاجرين من البلدان المجاورة) بالملكية أو حتّى السكن فيها، ما أعطى لها تجانسا إثنيًا كبيرًا.

يعيش معظم سكّان القصور بداخلها منذ الولادة، لأنّ آبائهم وأجدادهم عاشوا فيها، لذا يُعتبر هذا الفعل في مخيالهم، باعتباره إحدى مركّبات التمثّلات، استمرارية لإرث الأجداد إذ صرّح أحدهم: "لقد كنت أعيش في هذا القصر منذ ولادتي عام 1952، ونحن الآن في عام 2019، ما يعني أنّ عمري 67 عامًا وأنا فيه، في الواقع عشت حياتي كلّها هنا. ولم أختَر السكن في هذا القصر، إنّما كان السكن من اختيار والدي المتوفّى، وقد واصلت أسلوب حياتي" (ذكر، 67 سنة). ويزداد الترسّخ الاجتماعي أكثر نحو الذاكرة بالمحافظة على نفس المنزل والبقاء فيه، لأنّه رمز التواصلية الاجتماعية واحترام خيارات الآباء، "لقد عشت في القصر منذ ولادتي، وهذا المنزل يخصّ والدي وأجدادي. لقد اخترت أن أعيش هنا لأنّ أبي وأسلافي اختاروه" (ذكر، 62 عامًا). ذلك أنّ العائلات في الماضي، تعيش في منزل واحد، ويظلّ الأبناء في بيوت الآباء مع زوجاتهم وأطفالهم بعد الزواج، بخلاف الوضع الحالي.

شعور الانتماء إلى القصر، لدى المبحوثين يحركه مكنون المحافظة على تراث الأسلاف لكنّ المسألة أعمق من ذلك إذ يختزلها مفهوم "الشرف" وما يحمله من أنفة لدى الإنسان المغاربي والعربي عموماً، وكلّ إبقاء للماضي هو تجديد للانتماء الحضاري وعنوان هوية مترسّخة في التاريخ غير قابلة للتفاوض: "لقد وُلدت ونشأت هنا، حيث توجد ذكريات طفولتي. أنا فخور جدًّا بالتراث القديم العظيم الذي تركه أسلافي. فالقصر القديم انعكاس للحضارة التاريخية والعميقة الجذور التي بناها أجدادنا...

حضارة ذات قيمة كبيرة في مجال الهندسة المعمارية والزراعة التقليدية وحفر الآبار وحماية الموارد المائية بالطرق التقليدية" (ذكر، 60 سنة).
ولا يقف هذا التمثّل لدى كبار السنّ إنّما يتواصل في مخيال العديد من الشباب اليافع بالصورة ذاتها: "عاش جدّي في القصر خلال السبعينيات، واخترت القصر بسبب قيمته العالية، والجميع يحبّ أن يعيش في القصر. الحمد لله أنّ أسرتي اختارت القصر، أحبّ أنّ أعيش هنا، منزلنا يعود إلى عهد أسلافنا..." (ذكر، 25 سنة).

العلاقة بين سكّان القصور وتراثهم المعماري

إذا كانت القصور تراث الأجداد، فإنّ التراث المعماري بخاصة المنازل التقليدية أبرز العناصر التي تستهوي الساكنة وتدعوهم للإصرار على التواجد المتواصل فيها، وهنا يتقاطع المادي باللامادي وتبرز قيمة الاستعمالية في بعدها الجمالي الفني، خاصة إذا تجاوزت حدودها المحلية نحو العالمية، لتصبح أداة الاستعراض الهوياتي وتقديم الذات للآخر، وتنصيب "الشعور بالانتماء" أو "الاعتزاز التراثي" حارسا على الموروث وحاميا للماضي "أنا فخور جدًا بالتراث القديم العظيم الذي تركه أجدادي، وهو إرث تمّ تسجيله عالميًا. أودّ أن أبقى هنا لحماية الإنجازات القديمة والقيّمة لتاريخ الإنسانية منذ ألف عام" (ذكر، 60 عامًا). فإنّ تحديد الهوية يعتمد على الشكل المادي للمكان كما يقول شولتز (Norberg-Schulz, 1985, p. 15)، وتعدّ الهندسة جزءًا منها، "أشعر براحة أكبر في منزل جدّتي لأنّها حافظت على الشكل القديم بكلّ عناصره المعمارية، وهي عناصر غير موجودة في المنازل الجديدة..." (أنثى، 23 عامًا). هكذا يرتبط جزء من الاهتمام بالعمارة التقليدية داخل القصور بالحنين إلى الماضي أيضًا: "كما لو أنّ منازل هذا القصر لها حياة وروح... وسأبقى في القصر بشكل دائم. بسبب الحنين والعاطفة التي أكثرها له. فعلى سبيل المثال، كلّما سنحت لي الفرصة، أذهب إلى المسجد العتيق بسبب الحنين نفسه إلى الماضي والارتباط به" (ذكر، 67 عامًا).

القصر، مكان آمن للعيش

ذكر جميع المبحوثين موضوع الأمن، باعتباره مبررًا بارزًا للإقامة في القصر، وهو مطلب أساسي بشكل خاص للنساء والأطفال إذ يُسهّل لهم حركة التنقل بشكل أسلم

العيش في مواقع التراث الحي بوادي مزاب ...

ممّا هو عليه في الأحياء المجاورة. تقول امرأة تبلغ من العمر 55 عامًا: "أحبّ القصر بسبب إجراءاته المشدّدة، فهو يشبه الأمّ التي تعانق أطفالها... فأنت تجد فيه المزيد من الأمن والأمان، وأنا أحب هذه الخاصية المميّزة للقصر"، وتقول أخرى (50 عامًا). "القصر مكان آمن، فالسوق قريب، يمكنني الذهاب إلى المتجر والحصول على كلّ ما أحتاج إليه (خاصة وأنني أعيش وحدي مع ابني)، لكنّ العيش خارج القصر يجبرك على الاستعانة برجل للخروج أو ضرورة العيش مع عائلة كبيرة".

وهذا يساعد الرجال على الذهاب إلى العمل دون قلق بشأن أسرهم، و"لا توجد مشكلة بالنسبة للأطفال، على عكس ما هو خارج القصر حيث نجد مشاكل ... ولا أعتقد أنّي أريد التفكير في المغادرة. كما قلت، أسافر كثيرًا، والبقاء في القصر يجعلني واثقًا من أنّ عائلتي ستنقل من مكان لآخر بحرية وأمان أثناء غيابي" (ذكر، 65 عامًا). ويبدو أنّ معرفة السكّان لبعضهم بعضًا، ووجود علاقات جوار، سبب هذا الأمن. بالإضافة إلى شعور السكّان بمسؤوليتهم نحو هذا المطلب: "هناك أمن في قصر غرداية. وعلى الرجال القيام بدوريات في القصر ليلاً والطواف عليه قصد التحكّم في الأمن..." (ذكر، 60 سنة).

سكّان القصر، عائلة واحدة

قوّة الروابط والتضامن الاجتماعي خصائص تميّز سكّان مزاب. لكن ونظرًا لقدم مجموعات مختلفة، وحدثة السياقات الحضرية خارج القصر، وإقامة العائلات بها لفترة معيّنة ضمن نموذج حضري ومعماري مختلف، ونمط حياة جديد، جعل العلاقات تغدو أقلّ شدّة بكثير ممّا كانت عليه، لذا يعتبر العيش داخل القصر ضمانًا لتغطية اجتماعية وسط شبكة متينة من العلاقات تعزّز الشعور بالدعم الاجتماعي: "... فهو الشعور بالألفة والأمان والحياة بين سكّان القصر. التي تختلف تمامًا عن الأشخاص القاطنين خارج القصر" (ذكر، 67 عامًا)، "إذا أصررتُ على البقاء داخل القصر، فذلك لأنّه... محصّن... ضدّ العدوان الخارجي أو أيّ شيء آخر، وعندما تكون في القصر فأنت لا تخاف" (ذكر، 51 سنة)، وتساهم في ذلك العشيرة بشكل واسع كما يرى دوناديو (Didillon & Donnadiou, 1977, p. 37).

تصف فتاة شابة تبلغ من العمر 30 عامًا أيضاً العلاقة بين الجيران كأحد أسباب الرغبة في الاستمرار بالعيش داخل القصر، وتصف "القصر [بأنه] جميل، وأشعر أنه قريب من الناس، نحن نعمل معاً. أذهب لمساعدتهم، كما أطلب منهم المجيء لمساعدتي، وأطلب منهم أن يعتنوا بأطفالي حين أذهب لقضاء بعض حاجاتي. وإذا كانت إحدانا قوية في مادة الرياضيات أو اللغة الأجنبية مثلاً، فسوف تساعد الآخرين أثناء الامتحانات".

يبدو أنّ الهيكل الحضري ونمط المنازل يلعبان دوراً في العلاقة بين السكّان، وذلك نظراً لتقاربها والتصاقها ببعضها بعضاً وضيق الطرقات وتقارب المداخل بينها، ويختصر ضغط النسيج من المسافة ليسهل التواصل بين الأقارب والمعارف: "عندما كنت خارج القصر، كانت علاقتي مع الجيران محدودة للغاية، وعندما عُدت إلى القصر، أصبحت أكثر انخراطاً فيها" (أنثى، 35 عامًا)، "تشعر داخل القصر أنّك في أنس ... أما خارج القصر، فأنت خائف من صعوبات الطرق والسيارات وأشياء أخرى كثيرة" (ذكر، 34 عامًا).

وجود الروابط الاجتماعية القوية والتضامن بين سكّان القصر جعلهم يعتبرون بعضهم أفراد أسرة واحدة، "... فإنك تتعرف عليهم بالاسم وبعائلتهم، وهذه ميزة فريدة" (ذكر، 65 سنة)، وهي إحدى أسباب الالتزام بالتقاليد والأنماط الثقافية القديمة في المنطقة، إذ "السكّان ملتزمون بتقاليد وثقافات الماضي، والعلاقة بينهم تجعلك تشعر أنّك في عائلة واحدة..." (ذكر، 62 سنة) وعلى رأسها المسائل التي تحوم حول القضايا الدينية أو في أماكنها، "يوجد في المقام الأول مسجد ومصلى يؤديان إلى روابط وثيقة بين سكّان القصر" (ذكر، 67 عامًا) بالإضافة إلى ذلك، تعتبر اجتماعات تلاوة القرآن في المنازل جزءاً لا يتجزأ من حياة سكّان القصر في تمازج اجتماعي لا يعرف الطبقة ولا يقيم للفواصل الاجتماعية اعتباراً "... وفي الآن ذاته لا يمكنك معرفة من هم الأثرياء ومن هم الفقراء... فحتى أغنى الأشخاص يرتدي نفس الملابس التقليدية بذلك يشبه الآخرين ولا يتمايز عنهم" (ذكر، حوالي 60 عامًا).

سهولة الوصول إلى المرافق

قصور مزاب وحدات مستقلة مُكتفية ذاتياً (لذا يسمّونها ساكنوها باللهجة المحليّة مدينة "تمدينّت")، لديها جميع التسهيلات والاحتياجات اليومية، ولا يحتاج أهلها للخروج منها قصد قضاء مستلزماتهم، وذلك بفضل النسيج المحكم والمسافات القصيرة فد"التسوّق وتوفّر الاحتياجات الأساسية داخل القصر هو السبب في أنّنا نرغب في البقاء هنا" (ذكر، 67 عاماً) و "كلّ شيء بالقرب من المنزل، نحن لسنا بحاجة لاستخدام سيارة أو حافلة لتلبية الاحتياجات... لأنّ جميع الأماكن الضرورية قريبة من المنزل" (ذكر، 51 سنة). القرب والوصول إلى المرافق أمران مهمّان بشكل خاص للنساء: "... السوق قريب من القصر ولا توجد حاجة للمركبات، ويمكنك الخروج في المساء دون أيّ مرافق" (أنثى، 50 سنة).

يؤكد السكّان، بوجه الخصوص، على قرب المسجد والسوق ثمّ المدرسة، الأمر المهمّ هو أن لديهم التسهيلات الكافية والضرورية، ولا يوجد ما من شأنه أن يعيق نشاطهم، فالمكاتب الحكومية على سبيل المثال والتي تسبّب الكثير من حركة المرور والتجمّعات، لا تتواجد داخل القصر، و "إنّ القرب من المسجد وسهولة الوصول إليه، وسير الأطفال إلى المدرسة، وقرب كلّ شيء وتركزه داخل القصر أمر مهمّ حقّاً" (ذكر، 34 عاماً)، إذ أنّ "القصر هو مكان للسكن ولا شيء غير ذلك. لا توجد أشياء كثيرة فيه، ولكن توجد مساحات رياضية ومدارس ومكتبات ومساجد. كلّ ما يحتاجه الناس موجود في السوق ويذهبون إليه دون أيّ حاجة للسيارة أو الدراجة النارية... وهذه سمة مميزة للقصر" (ذكر، 65 سنة).

المناخ والاعتدال الحراري

تتمثّل إحدى فوائد القصر، وفق السكّان، في الراحة المناخية. فالناس عقلانيون للغاية بسبب التقاليد والمعتقدات الدينية على وجه الخصوص، وهم حريصون جداً على استخدام الموارد وتوفير الطاقة فأنّت " لا تحتاج إلى سخّان في الشتاء، وحتى في فصل الصيف، يمكنك العيش بدون مكيف هواء، لأنّ طبيعة بناء المنازل تقتضي عدم وجود حاجة للتبريد في الصيف وللتدفئة في الشتاء" (ذكر، 35 سنة). فوجود جدار

يحيط بالقصر يمنع جزئياً الحرارة والبرودة، بالإضافة إلى ذلك، فإنّ البنية المحكمة للقصر والالتصاق بين المنازل جعلت الأسطح المفتوحة والمناطق المعرضة لأشعة الشمس أو الرياح مختزلة بأقل ما يمكن، واستخدام المواد الأصلية والأنماط التقليدية لهندسة البيوت أسهم في توفير الراحة الحرارية للمنازل ف "على الرغم من أنّ بعض الناس يعتقدون أنّ المنطقة باردة، لكن المنازل في الشتاء دافئة... فأنا لا أستخدم الأجهزة الصناعية لأنّ منزلنا يقع بين المنازل الأخرى، كما أنّ وجود الجدار يمثل عائناً أمام الحرارة والبرودة الشديدة. ونتيجة كلّ ذلك، يظلّ المنزل دافئاً" (أنثى، 50 عاماً).

الدين؛ العامل الحاسم في حياة سكّان القصر

لسكّان مزاب معتقدات دينية قويّة⁷ أثرت بشكل كامل على حياتهم الفردية والاجتماعية. فعلاقات الجوار والروابط الاجتماعية مستوحاة حسب السكّان من تعاليم القرآن والسنة، والأخلاق الدينية. وهم على دراية بذلك ويقروّن به: "... لأنّ هذه هي الأخلاق الإسلامية وقد وصّى نبيّ الإسلام بالحسن للجيران" (ذكر، 65 عاماً). و "يعقد نساء القصر جلسات تلاوة القرآن... كلّ يوم اثنين في منزلنا الصغير. وهناك جلسات قرآنية أيضاً في المنازل الأخرى، وقد ورثنا هذا التقليد من الأجيال السابقة" (ذكر، 25 عاماً).

يمكن بسهولة رؤية الدور الذي يلعبه الدين في جميع جوانب حياة سكّان القصر، من ذلك مثلاً إغلاق جميع المتاجر خلال أوقات الصلاة؛ والاعتقاد في حرمة التدخين الذي نلاحظ منعه في القصر، والأماكن العامة التي يتجول فيها السائح، مثل أماكن إقامتهم، والممرات التي يمزّون عليها، وما إلى ذلك، "يحب السوّاح شراء السجائر، لكننا نقول لهم أنّنا لا نملك سجائر هنا، ويجب أن تبحثوا عنها خارج القصر". (ذكر، 60 سنة). "شيء آخر يعجبني في القصر هو أنّني على مقربة من المسجد وكبار السنّ المتديّنين الذين قادونا وأظهروا الطريق الصحيح للأجيال القادمة" (ذكر، 25 عاماً). لذا

⁷ لعلّ من أبرز هذه المعتقدات، الارتباط بين القول والعمل فلا إيمان بدون عمل، خلود أهل الكبيرة في النار خلوداً أبدياً، لا مكانة بين المكانتين إمّا جنة دائمة أو جحيم دائم ولا خروج من هذا الأخير بعد دخوله، ولا شفاة لأهل الكبائر... وغيرها ممّا يتمّ تداوله عبر التنشئة الاجتماعية والخطاب الوعظي والمسجدي التعليمي (أنظر مثلاً: بالحاج بن عدّون قشّار، عوائد ميزاب: سنن لا تقاليد، 2007).

ف"القصر هو أفضل مكان لشخص يريد أن يُنشئ أطفاله على المحافظة على الدين وأصوله والشعور بالانتماء. شيء إيجابي واحد يدفعني للعيش في القصر هو أنك تشعر بأنك تنتمي إلى حضارة عميقة الجذور والتي هي أصلنا الحقيقي" (ذكر، 41 عامًا).

علاوة على ذلك، يلعب الدين دورًا مهمًا في هندسة المنازل، كعدم تقابل بابي منزلين متقابلين، وعدم فتح باب المدخل مباشرة للأزقة، مع نوافذ صغيرة لتدوير الهواء فقط، وتحديد طول المنازل، كل ذلك بهدف المساواة الاجتماعية، لذا تبدو جميع المنازل متشابهة وذات واجهات بسيطة وموحدة ومن الصعب التمييز بين الأغنياء والفقراء. "كل شيء هنا مُستوحى من الدين، المساواة بين جميع الناس على سبيل المثال في الاستفادة من أشعة الشمس؛ لكل شخص الحق في الاستمتاع بأشعة الشمس ولا يُسمح لأحد ببناء جدار أطول لمنع جاره من الاستفادة من الأشعة". (ذكر، 22 عامًا).

سكان القصر المزابي: المشكلات والاهتمامات

يواجه القصر بعض المشكلات والاهتمامات التي يرتبط بعضها بالسمات الفيزيائية للقصر والبعض الآخر بالسكان والحفاظ على التراث. تشير العديد من هذه المشكلات المذكورة إلى شعور الأشخاص الذين تمت مقابلتهم ومُساءلة اهتماماتهم بخطورة تدميرها للقيم الثقافية للقصر وتراثه العريق.

التدخلات المدمّرة والبناء غير المتوافق، تهديد للأصالة

ذكر العديد من السكان أنّ التدخلات التي تمت في القصر أسفرت عن الإضرار بهوية العمارة التقليدية وأصالتها، وأعربوا عن عدم رضاهم لجهل بعض الساكنة بالقواعد المعمارية الموروثة، "مثل الارتفاع الشاهق للمباني التي تمنع أشعة الشمس ودوران الهواء أو إنشاء نوافذ مفتوحة إلى الخارج تُحدث اضطرابًا للمباني الأخرى أو وضع الزخارف على نطاق واسع نسبيًا... إلخ، فكل ذلك يتطلب المزيد من الحذر حتى يتمكن من الحفاظ على الحياة الجميلة داخل القصر" (ذكر، 67 سنة). و"... يمكننا الإشارة إلى استخدام الإسمنت في ترميم المباني؛ فكثير من الناس لا يحترمون القواعد والمعايير المعمارية في القصر؛ فيستخدمون الأبواب المعدنية بعد ترميم المنازل بإضافة

العديد من العناصر الأخرى إلى المباني. يتضاءل رونق القصر بسبب عدم احترام معايير البناء" (ذكر، 65 عامًا).

المنازل المهجورة وتجاهلها من قبل أصحابها من الانشغالات المطروحة أيضاً، حتى باتت "بعض المنازل على وشك الانهيار والدمار ولا أحد يهتم بها؛ وبعض المنازل التي أغلقت أبوابها ذات تشققات وكسور ولا يقوم أصحابها بإصلاحها، وبالتالي تزداد الشقوق أكثر فأكثر" (ذكر، 35 عامًا). و"الكثير من الناس غادروا القصر وأصبحت بعض جوانبه مهملة الآن، لا كما كان في الماضي. تمّ تغيير النمط المعماري وتمّ تجاهل القصر على نطاق واسع. المنزل الذي عشت فيه لم يعد هو نفسه كما كان من قبل. فأبواب الكثير من المنازل مغلقة بعد بيعها... ولا أحد يعيش فيها... معظم الأحياء والشوارع دُمّرت... وفقدت العديد من الشوارع مجدها السابق، إذ تشعر بالرعب عندما تراها" (أنثى، 35 عامًا).

ويرى البعض أنّ هذا الوضع هو نتيجة انخفاض شعور السكّان بالمسؤولية بينما كانوا في الماضي يُولون اهتمامًا أكبر بالقصر والمنازل به: "ربما قبل أن يتمّ تسجيله كتراث عالمي، كان كلّ شيء في السابق أفضل؛ كان السكّان يحمون المنازل، لكن يبدو الآن أنّهم يتوقعون من الدول الأجنبية حمايتها وصيانتها، إنّما هذا لم يحدث. كانت الشوارع في السابق، أكثر نظافة" (أنثى، 35 عامًا).

كما أنّ بعض الإجراءات المتخذة لتحديث القصر وتطوير منشآت جديدة فيه أضرت به، كـ "الأسلاك الكهربائية وحفر أنابيب تصريف المياه..." (ذكر، 67 عامًا). ومن الأطراف التي تتحمّل المسؤولية "ديوان حماية وترقية سهل وادي مزاب" حسب أحد المهندسين المعماريين (25 سنة) فـ "OPVM لم تف بواجبها كما ينبغي، والمتمثّل في حماية العمارة التقليدية داخل القصر. نتيجة ذلك، نرى منازل يجري إعادة بنائها دون أن تتوافق مع الهندسة المعمارية الأصلية للقصر، فهذه المؤسسة مطالبة بالتدخّل في هذا الصدد".

عدم وصول السيارات؛ وتقييد حركة المسنين

تعتبر الحركية الحضرية أحد أهم مؤشرات التنمية المستدامة في الحواضر المعاصرة، خاصة في المدن الأفقية الامتداد (Les villes diffuses)، وفي حالة قصور مزاب المصنفة من قبل المعمارين المعاصرين ضمن المدن ذات النمط المدمج (Les villes compactes)، يشكّل المؤشر ذاته نقيصة وظيفية بالنسبة للسكان. فعلى الرغم من اعتقاد البعض بتوقّر الهدوء والأمان بسبب عدم وجود السيارات، يعتقد البعض الآخر أنّ ضيق عرض الممرّات ووجود السلالم، يمنع وصول المركبات إلى القصر، وتعدّ هذه إحدى نقاط ضعفه، إذ تُشكّل أكثر من مشكلة لكبار السنّ، وذوي الحاجات الحركية الخاصة (المعاقين). إلّا أنّ عدد الأشخاص الذين ذكروا ذلك قليل، "فحين يكبر أحدنا عليه أن يبحث عن مسكن له يمكن للسيارة أن تصل به إلى باب المنزل" (ذكر، 35 عامًا). استحالة وصول المركبات جعلت بعض السكّان يتنقلون على الدراجات النارية وهي مشكلة بحدّ ذاتها، "مشكلة كبيرة أخرى هي الدراجات النارية، التي تشكّل خطراً على النساء والأطفال" (ذكر، 65 سنة).

لكنّ النقطة المهمّة التي يجب مراعاتها في اختيار المسكن هي ترتيب الأولويات، وهنا يقول ساكن يبلغ من العمر 60 عامًا، درس الرياضيات في الولايات المتحدة ثمّ عاد للعيش في مسقط رأسه داخل القصر: "ولعلّ إحدى نقاط ضعف القصر السيارات التي لا تستطيع الدخول إليه. فقد تجعل السلالم وصول المسنّين لحاجتهم أمرًا عسيرًا، ولكنّ الأهمّ من ذلك، أنّ علينا تحديد أولوياتنا. فإذا كانت أولويتي الأولى، على سبيل المثال، ضمان السلامة، فأنا أعلم أنّ القصر آمن تمامًا، وبما أنّ المنازل تلتصق ببعضها البعض، والناس يعرفون بعضهم البعض فإنّ السرقة ليست سهلة. ومن ناحية أخرى، أعرف أنّني إذا اخترت قيادة سيارتي الخاصة، فيجب علي السير جزءًا من الطريق لحمل أغراض التسوق. أو إذا كنت أنوي إعادة بناء منزلي، فيجب أن أحمل مواد البناء على الحمار... فإذا خيّرت السكّان، فسيقول كثير منهم أنّهم يفضلون السلامة على الأشياء الأخرى".

منازل صغيرة، مشكلة الجيل الجديد

أدت محدودية سطح التلال التي بُنيت عليها القصور ومنحدرات أراضيها، ونمط حياة السكّان القدامى والعديد من العوامل الأخرى إلى بناء منازل صغيرة المساحة داخل القصر. أصبحت هذه الضرورة اليوم، مشكلة بالنسبة للبعض، ف"مساحة منازل القصر غير كافية للعائلات الواسعة. تتراوح مساحة المنازل بين 70 و 80 م². وهي غير مناسبة لعائلة من 7 أو 8 أفراد. هناك أيضاً منازل أكبر ... لكن أكثر من 75 ٪ من المنازل داخل القصر صغيرة، وبعضها يصل 50 م². ومع ذلك، عاشت في الماضي العائلات على نطاق واسع في مثل هذه المنازل. بينما اليوم، لا يحب بعض الشباب العيش مع أسرهم أو عائلة زوجهم في منازل صغيرة" (ذكر، 51 سنة). بالإضافة لتغيّر نمط الحياة، زاد أيضاً الأثاث الذي تحتاجه الأسر (مثل الثلاجة والغسالات والتلفزيون وما إلى ذلك ممّا يأخذ مساحات أكبر)، لهذا السبب تُفضّل العديد من الأسر امتلاك منازل خارج القصر: "بعض الأشياء صعبة داخل القصر، بعض المنازل غالية وصغيرة. لذلك اختار أبناي العيش خارج القصر" (ذكر، 65 عاماً)، ف "لا أحبّ مغادرة القصر ولكن بسبب الزيادة في عدد أفراد عائلتي، يجب أن أفعل ذلك" (ذكر، 50 عاماً). ويحبّ البعض الخروج خارج القصر بسبب رغبة أبناؤه، "... لأنّ الجيل الجديد يحبّ العيش في منازل بها غرف كبيرة، وبها مواقف للسيارات. ومع ذلك، منذ أن ولدت وترعرعت هنا، لا أحبّ أن أذهب بعيداً" (ذكر، 62 عاماً).

التغيّرات الثقافية والاجتماعية في القصر

مرّت قصور مزاب، في العقود القليلة الماضية، بتغيّرات مسّت عدّة مجالات منها الديموغرافية والثقافية والاجتماعية وغيرها، وأدت إلى تغيّر نمط الحياة الأسرية وميل جيل الشباب نحو الإقامة خارج القصر، "أنا أعيش في القصر منذ عام 1966، وسأبقي العديد من التغيّرات. إحدى هذه التغيّرات انخفاض عدد السكّان، منذ أن بدأ الناس يسكنون خارج القصر. كانت عائلتان أو ثلاث تعيش في منزل واحد في السابق، لكن نادراً ما نشاهد ذلك الآن" (ذكر، 53 سنة).

تغيّر آخر مهمّ، تسبّب في قلق الساكنة أو عدم راحتهم، إنّه الحدّ من العلاقات الاجتماعية والتواصل، "فقد تغيّرت العلاقات بين السكّان بشكل كبير، ويبدو أنّ التعاون والدعم والتقارب بين الجيران تضاءل. قد يكون ذلك بسبب التغيّرات التي حصلت على مستوى التنمية الاقتصادية ونمط الحياة" (ذكر، 60 سنة). ومع ذلك، فإنّ معظمهم على استعداد للحفاظ على علاقات الجوار، "في بعض الأحيان، لا يرى بعضنا بعضاً لمدة طويلة، ما عدا لعب الأطفال في الشارع، فالتواصل قد انخفض مقارنة بالماضي. ولم نعد نذهب إلى منازل بعضنا البعض كما كان من قبل، نرى بعضنا البعض كلّ يوم لكن في الشارع بالتحية من بعيد فقط، فالجميع مشغول اليوم بعمله. وأصبحت العلاقات مع الجيران تحدث من خلال الأطفال فقط. لقد تلاشت العلاقة الحميمة التي كانت قائمة في الماضي، وأصبحت مقصورة على المناسبات والاحتفالات، وهذا أمر مهمّ للغاية، فالأصل لا يجب أنْ نقصّر في علاقاتنا مع الجيران" (أنثى، 23 عاماً).

أحد أسباب تدهور هذه العلاقات الاجتماعية هو التغيّر الذي حدث في السياق الديموغرافي. بعد رحيل بعض السكّان القدامى خارج القصر، أصبح جزء كبير من السكّان الحاليين فيه من المستأجرين (معظمهم من العائلات الشابة)، الذين ليس لديهم تاريخ طويل من العيش داخله، "لقد تغيّرت العلاقات كثيراً مقارنة بالماضي، كان هناك تضامن وصداقة واحترام للحيّ. أمّا الآن فالعائلات الجديدة تشتري منزلاً في القصر، ولا تقدّر الجيران على الإطلاق، لأنّ أفرادها لم يكبروا مع أهل ذلك الحيّ. في الماضي، كان الجيران أكثر حناناً لأنّهم نشؤوا مع بعضهم البعض ونشأ أطفالهم فيما بينهم. في الحيّ الذي كنت أعيش به لم تبق غير ثلاث عائلات فقط ممّن كان فيها. لقد رحل الجيران الآخرون، واستبدلهم أشخاص آخرون، لا علاقة لهم بتاريخ هذا الحيّ، ممّا أثار الصراع بينهم. لدى الأشخاص الجدد أفكار مختلفة ولا يعرفون السكّان السابقين ولا يعلمون أطفالهم احترام جيرانهم. يتغيّر سكّان المنازل باستمرار، في كلّ مرة ترى عائلة جديدة وطفلاً جديداً وثقافة جديدة..." (ذكر، 34 عاماً).

الخلاصة

أظهرت الدراسة المسحية للبيانات المرصودة والملاحظات العيانية والمقابلات المجراة مع عينة شبه قصدية من سكان ثلاثة قصور تراثية في منطقة وادي مزاب (غرداية، بني يسجن ومليكة)، أنّ هذه القصور ما تزال بعد أكثر من عشرة قرون، حيّة بسكانها، الذين ما زالوا يستخدمون منازلهم محافظين على وظائفها الأصلية، وما زالت الحياة مستمرة كالمعتاد. على عكس العديد من المراكز الحضرية القديمة في عديد المدن الجزائرية التراثية العتيقة، التي تحوّلت فيها الحواضر مأوى للمهاجرين وذوي الدخل المحدود، أو أطلالا مهجورة. فسكان قصور مزاب (بما فيهم السكان الأثرياء أو العائلات الشابة التي أتت من خارج القصر) هم دوما السكان الأصليون للمنطقة، ولا يُسمح لغيرهم بالعيش فيها.

على الرغم من التغيّرات الفيزيكية والديموغرافية والاجتماعية والثقافية التي خضعت لها، إلا أنّ العديد من ساكنها يعيشون هناك بشغف وحماس. أسهمت عوامل مختلفة في بقاء هذه القصور، من بينها احترام تراث الأسلاف وإعطاء قيمة للتقاليد التي كانوا عليها، وكذا الشعور بالانتماء إلى النبالة التاريخية والحضارية، وتسجيل هذه القصور باعتبارها تراثا عالميا على مدى العقود الأربعة الماضية جعل سكانها يشعرون بالفخر أكثر أمام تراث أسلافهم.

للتمسك بالدين أثر كبير على ميل السكان للبقاء في القصور، وذلك للطابع المركزي للمسجد وما يعقّبه من بناء المنازل والمساحات وفق المبادئ الدينية، وكذا العلاقات الاجتماعية المستوحاة من التعاليم الدينية، التي تشكّل أفضل مناخ لعيش حياة دينية مبنية على أساس تقاليد يحرسها الزعماء الدينيون. هذا الشعور بالانتماء والالتزام بالأصالة والتقاليد والدين لا يظهر فقط بين كبار السنّ ولكن أيضاً بين العديد من الشباب المقيم في القصر. بالإضافة إلى ذلك، عملت السمات المعمارية في استمرارية الإقامة به. هذه المنازل التي تمّ بناؤها في القرون الماضية وفقاً للمتطلبات المناخية والبيئية والثقافية والاجتماعية والدينية، نجت حتّى يومنا هذا من عوامل الدمار، ويمكنها أن تلبي جزءاً كبيراً من احتياجات ساكنها، بما في ذلك الراحة المناخية دون

الحاجة إلى استخدام التدفئة وأنظمة التبريد، كما الاحتياجات الاجتماعية من تواصل وروابط اجتماعية.

يشكل الأمن إحدى أهم أولويات الساكنة، ويرجع استتبابه إلى التنظيم المكاني، وهيكلته الديموغرافية والاجتماعية. إنّ العلاقات الاجتماعية، الناتجة عن تقاليد مزاب ومعتقداته، جعلتهم ينظرون إلى أنفسهم كعائلة واحدة، وهو الأمر الذي لعب دوراً هاماً في خلق هذا الأمن. بالإضافة إلى ذلك، يمتلك القصر أغلب وسائل الراحة والخدمات التي يحتاجها السكّان يومياً، وبسبب المسافات القصيرة، يمكن للمقيمين تلبية احتياجاتهم دون أيّ عريات. وهذا يصنع الفرق بين القصر والمناطق الجديدة والمتناثرة خارجه.

ومع ذلك، نجد مخاوف ومشاكل تعترض بعض السكّان يمكنها أن تعرّض مستقبل القصر المزابي للخطر، تتعلّق بسلسلة من الميزات التي تطبع هذا الفضاء وتجعل منه غير قادر على تلبية بعض متطلبات أسر اليوم. كالمنازل الصغيرة والشوارع والممرّات الضيقة، وكثرة الأدراج واستحالة الوصول بالسيارة إليها، ويخصّ بعضها إهمال بعض السكّان لمحيطهم ما يهدّد موروث القصور وأصالتها.

التدخلات المدمّرة التي يقوم بها البعض دون إشراف المنظّمة المكلفة بالحفاظ على التراث هي القضية الأكبر في القصر لدى العديد من السكّان، والذين يشعرون بالقلق إزاء سلامة تراث أسلافهم وهويته. في مثل هذه الحالة، يجب الإسراع في تطوير برامج وقواعد مراقبة البناء في القصور من خلال المنظّمات المحلية والوطنية للمحافظة على التراث، وتقديم المساعدة المالية (دعم تكاليف الصيانة والإصلاح) من قبل المنظّمات الدولية ذات الصلة بالتراث العالمي، وخاصة منظمة اليونسكو، والتي يمكن أن يكون لها تأثير كبير على حماية هذه القصور وعلى استمرارية العيش فيها ومنع تحويلها إلى تراث ميّت في المستقبل.

بيليوغرافيا

Adad, M.-Ch , Messaoud, A. (2014). *International Seminar Architecture and Islamic art in Algeria*. [The university of Constantine 3 and the university of Emir Abdelkader].

Adad, M.-Ch, Mazouz, T. (2013). Les anciens et nouveaux ksour: étude comparative. Cas du M'zab. *Courrier du savoir*, 16, p. 77-87.

Amat, C. (1888). *Le M'zab et les Mozabite*. <https://bit.ly/3qcCuBR>

Arkarapoti Wong, P. (2015). *The investigation of living heritage attributes in living heritage sites. Case study: Nan, Thailand and Luang Prabang, Lao PDR*. [thesis The Bauhaus, Universität Weimar].

Baillie, B. (2007). Conservation of the Sacred at Angkor Wat: Further Reflections on Living Heiritage. *Conservation and Management of Archaeological Sites*, 8, 123- 131.

Beck, U. (1992). *Risk Society: towards a new modernity*. London: Sage.

Chabi, M., Dahli, M. (2011, 17-18 mars). Une nouvelle ville saharienne Sur les traces de l'architecture traditionnelle. Communication au Colloque *Le patrimoine bâti et naturel au regard de la question du développement durable et du lien social*. Université de Rouen.

De Certeau, M. (1990). *L'invention du quotidien* (1). Paris: Gallimard.

Didillon, H., Donnadiou, C. (1977). *Habiter le désert: les maisons mozabites: recherches sur un type d'architecture traditionnelle pré-saharienne*. (6). Bruxelles : Editions Mardaga.

Satu, E., Helvi, K. (2008). *The qualitative content analysis process*. Journal of Advanced Nursing (62)1, 107-115. <https://bit.ly/3yK5hld>

Giddens, A. (1991) *Modernity and Self Identity, self and society in the late modern age*. Cambridge : Polity.

Gravari-Barbas, M. (2005). *Habiter le Patrimoine : Enjeux. Approches, Vécu*. Rennes : Presses Universitaires de Rennes, Collection Géographie Sociale.

Grbich, C. (2013). *Qualitative data analysis: an introduction*. London: Sage.

Heidegger, M. (1971). *'Building, Dwelling, Thinking, in Poetry, Language, Thought*. Trans. Hofstadter. London: Harper and Row .

Takamitsu, J. (2011). The impact of world heritage site designation on local communities—A case study of Ogimachi, Shirakawa-mura, Japan. *Tourism Management*, 32, (2), 288-296.

Kong, P. (2008). *Social quality in the conservation process of living heritage sites*. [Master of Arts (Architecture), National University of Singapore. Master of Urban Planning and Urban Design, Tongji University, Shanghai, P. R. China].

Lévy, J., Lussault, M. (dir.). (2003). *Dictionnaire de la géographie et de l'espace des sociétés*. Paris : Belin.

Mason, R. (2002). Assessing values in conservation planning: methodological issues and choices. in M, de la Torre. *Assessing the Values of Cultural Heritage: Research Report*, p. 5-30. Los Angeles CA : The Getty Conservation Institute .

Norberg-Schulz, Ch. (1985). *The Concept of Dwelling: On the Way to Figurative Architecture*. New York : Electa/Rizzoli.

Sandelowski, M., Barroso. J. (2003). Classifying the findings in qualitative studies. *Qualitative health research*, 13, (7), p. 905-923.

Seamon, D., Mugerauer. R. (1989). *Dwelling, place, and environment: towards a phenomenology of person and world*. New York: Columbia University Press.

Stock, M. (2015). Habiter comme «faire avec l'espace». Réflexions à partir des théories de la pratique. *Annales de géographie*, 4, p. 424-441 .

Streubert Speziale, H., Rinaldi Carpenter, D. (2007). *Qualitative research in nursing: Advancing the humanistic imperative*. Philadelphia : Lippincott Williams & Wilkins.

Toennies, F. (1957). *Community and Society: Gemeinschaft und Gesellschaft*, Translated and edited by Charles P. Loomis. East Lansing, Michigan: Michigan State University Press.

Tunprawat, P. (2009). *Managing living heritage sites in mainland southeast Asia*. [Ph.D thesis, Silpakorn University].

Wijesuriya Gamini. "Conservation in Context." In Falser, M.S., Lipp, W., Tomaszewski, A. (eds.) *Proceedings of the International Conference on 'Conservation and Preservation-Interaction between Theory and Practice*, In memoriam Alois Riegl (1858-1905)', Firenze, Edizioni Polistampa, 2010: 233-248.

Wijesuriya, G. (2015). *Living heritage: a summary*. Rome : ICCROM.

بكير أعوش، (1991). وادي مزاب في ظل الحضارة الإسلامية. دينا تاريخيا اجتماعيا. غرداية، الجزائر: المطبعة العربية.

بلحاج معروف، (2002). العمارة الدينية الإباضية بمنطقة وادي مزاب من خلال بعض النماذج. [أطروحة دكتوراه في تاريخ العمارة، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان].

حاج سعيد يوسف، (2006). تاريخ مزاب: دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، ط2، غرداية: المطبعة العربية.

خواجة عبد العزيز بن محمد، (2017). قراءات في المجتمع الجزائري، مجموع مقاربات سوسيو-أنثروبولوجية، ألمانيا: نور للنشر، الجزائر داية للنشر.

خوجة عبد العزيز، (2017). الضبط الاجتماعي ومعوقاته في المجتمعات التقليدية، نظام العزابة بوادي مزاب (الجزائر) أنموذجا، دراسة سوسيو – أنثروبولوجية. بني يزقن، غرداية، الجزائر: مكتبة الكتاب العربي.

طلاي إبراهيم، (1970). ميزاب، بلد كفاح ، قسنطينة: دار البعث.

معمر علي يحي، (1985). الإباضية في الجزائر، (قسمان). الحلقة الرابعة، تصحيح: أحمد عمر أبكة ، غرداية: المطبعة العربية.

الناصر لمسن بن بابا، (2014). العرف في التعمير والسكن والفلاحة والري بوادي ميزاب. القرارة، غرداية: نشر جمعية إحياء التراث وحماية الآثار.

يحي بوراس، (2001-2002). العمارة الدفاعية في منطقة وادي ميزاب خلال القرن 10هـ/- 11هـ، 11م/19م (نموذج قصر بني يزقن). [مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر].